



التطرّف والموقف العقلاني في الفكر العربي المعاصر قراءة المفكر محمد عابد الجابري

حفيظ اسليمانبي / المغرب

المقال سنتوقف مع الجابري ومقارنته للظاهرة،
والحلول التي يطرحها لمواجهتها.

التطرّف والموقف العقلاني

يرى محمد عابد الجابري أنّ التطرّف موقف غير
عقلاني، أي أنه لا يصدر عن العقل، وإنما يصدر
عن العاطفة، لذلك كان التطرّف دومًا عبارة عن رد
الفعل، ومصدر ردود الأفعال هو الإحساس ذو
الفاعلية البدنية، وليس التفكير الذي هو فاعلية
عقلية، هكذا يذهب الجابري إلى أنّ: "التطرّف
موقف ذاتي يصدر عن فلسفة (أنا وحدي). أما
الموقف العقلاني، فأول دعاماته وشروطه،
التجرّد عن الهوى والعاطفة، والنظر إلى الأمور
كما هي في ذاتها بقطع النظر عن موقف الذات
منها، وهذه هي الموضوعية، وهذا ما يجعل

إنّ لغة الرّصاص وصوت المدفعيّات التي
انتشرت في كثير من البلدان، بسبب ظاهرة
التطرّف والإرهاب؛ الظاهرة التي رُوّعت الأمنين
ودمّرت المؤسسات، جعلت الحكومات والدول
تعيش حالات الرعب والاستنفار لمواجهة تلك
الظاهرة. فالعالم اليوم يعاني من موجة مظاهر
التطرّف، إما ضد الدولة وأجهزتها ومؤسساتها،
وإما ضد فئة من فئات المجتمع.

وهنا ينبّه المفكر محمد عابد الجابري إلى أمر
لا يجب أن يغيب عنّا، وهو أنّ ربط التطرّف
في العالم العربي والإسلامي بـ"الإسلام" عمل
ينطوي على تمويه أيديولوجي صارخ، سواء من
جانب من يمارسون الترف تحت شعار الإسلام
أو الذين يحاربون ما يصدر عن ذلك التطرّف
من ممارسات وينسبونها للإسلام. في هذا

الجابري من ذلك كله إلى القول: "إنَّ المتطرّف يرفض الحوار، والموقف العقلاني قوامه الحوار، الحوار مع النفس بالمراجعة والنقد الذاتي، والحوار مع الغير للتدقيق في الأمور والإحاطة بتلايب الموضوع والنظر إليه من زوايا مختلفة، طلبًا لأكبر قسط من الحقيقة وأكبر قدر من الصواب"⁽³⁾.

الخلقية الإسلامية ضد التطرف

ينطلق الجابري من سؤال مهم وهو: هل نحمل الإسلام وزر الحركات المتطرّفة التي يتحرك كثير من أعضائها باسم الدين؟ يرى الجابري بأنه لا يقبل ولا يفعل أن يجهل المسلم أو ينسى أن الإسلام ضدّ التطرف بجميع أنواعه: فالتطرف في العبادة، أي الزيادة في ما قرّره الشرع منها، بدعة وضلالة، تمامًا مثلما أنّ الغلوّ في العقيدة ينزلق بصاحبه إلى الخروج عن الإسلام.

إنّ الإسلام صريح في كونه دين الوسط والاعتدال، دين التسامح والأخذ بالحكمة والتي هي أحسن، ففي مجال الدعوة إلى الدين، إلى الإسلام يخاطب الله رسوله المبلغ عنه قائلاً:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) سورة النحل 125.

ويخاطب الله تعالى الناس الذين يتوجّه إليهم

التفاهم ممكنًا. والموضوعية تقوم أولاً وقبل كل شيء، على الاعتراف بجميع الأطراف، وبالتالي الاعتراف بالاختلاف. وهكذا فالتطرّف قبلته الذات، أما الموقف العقلاني فوجهته العالم"⁽¹⁾.
إدًا، التطرف موقف منغلق يلغي العالم، ومن ثم يلغي الآخر المختلف عن توجهه.

توقف الجابري كذلك عند الغلو، حيث يرى بأنه قرين التطرف وملازم له، لأنّ الأخذ بطرف واحد وإقصاء الأطراف الأخرى ينجم عنه تضخيم الطرف المختار كي يصبح وحده كل شيء، فيغدو العالم وتعدو الحقيقة من صنع المتطرّف وكأنه مالك لها، يعلّق الجابري على ذلك بقوله: "ومثل هذا الموقف لا يمكن أن يجد التسامح إليه سبيلًا، فهو إذ يصدر عن الاعتقاد في امتلاك الحقيقة، كل الحقيقة، يضع المخالفين جميعًا خارج الحقيقة، وأكثر من ذلك يرى أنه كان من واجبهم أن يدركوا الحقيقة، كل الحقيقة، بالصورة التي يدركها هو، وبالتالي كان عليهم أن يتطابقوا معه"⁽²⁾. هذا الفهم ينتج عنه الكراهية تجاه المخالف المختلف، ما يعني بداية الفوضى وعدم الاستقرار.

في مقابل الغلو، نجد الموقف العقلاني الذي يتّسم بالاعتدال في الرأي والنسبية في الأحكام، إضافة إلى التماس الأعذار للغير. ليخلص

(1) المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، آذار/ مارس 1999، ص 120.

(2) المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، ص 121.

(3) نفسه، ص: 123



◀ المفكر محمد عابد الجابري

(وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ
بَيْنَكُمْ) سورة البقرة 237.

ثم قوله:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ) سورة فصلت 34.

يعلق الجابري على هذه الآيات قائلًا: "وبعد،
فهل يصح القول إنّ في الإسلام مكانًا للتطرّف

رسوله بالدعوة بخطاب لا ضغط فيه ولا إكراه ولا
تطرّف، فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ
رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) سورة النساء 170.

هذا على سبيل المثال في مجال الدعوة والعقيدة،
أما على مستوى العقيدة والمعاملات، فالقرآن
يوصي المسلمين بالتسامح والعفو. يقول سبحانه:

لا بد من وسائل عقلانية لمعالجة لا عقلانية التطرّف. يقول الجابري: "إنّ البديل العقلاني للتطرّف لا يمكن أن يتبلور ولا أن يستوعب إلا إذا تمّت صياغته وتعميمه في مناخ فكري عقلاي يصنعه التعليم ترعاه الثقافة وتعمّمه"⁽⁵⁾.

هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا إذا انطلقنا من التعليم ليس أيّ تعليم، بل التعليم النقدي، التعليم الذي يطرح السؤال، لماذا وكيف؟ وليس تعليمًا استهلاكيًا. فلا بد بحسب الجابري من "التعامل العقلاني المبني على الفهم والتفهم ووضع الأمور أمام مرآة التاريخ، وإشاعة الفكر النقدي في الثقافة والتعليم. أما غير ذلك من وسائل المواجهة السلبية فهي لا تنتج غير المزيد من التطرّف"⁽⁶⁾. وكأنّ الجابري هنا يقول إنّ مواجهة التطرّف لا تكون بوسيلة واحدة، وتبقى الثقافة والتعليم الوسيلة الأفضل.

أخيرًا وليس آخرًا، نقول إنّ ظاهرة التطرّف ظاهرة خطيرة أصحبت تهدد العالم أجمع، ما يستوجب مساهمة الجميع في التصدي لها، لبناء مستقبل للبشرية قائم على التسامح والتواصل الحضاري والحوار الديني دون أيّ إقصاء للآخر. وتحقيق ذلك رهين بإصلاح المنظومة التعليميّة قصد خلق جيل يؤمن بالقيم الإنسانيّة وبقدسية الإنسان وحقه في الحياة ■

والغلو، سواء تعلق الأمر بمعاملة المخالفين في الدين أو بتعامل المسلمين مع بعض"⁽⁴⁾. لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد متطرّفون يتخذون من الدين مرجعية لهم في تأويلهم الخاص لبعض النص الديني.

ما السبيل لعلاج ظاهرة التطرّف؟

ولعلاج الظاهرة، يرى الجابري أنه يتعيّن التعامل مع التطرّف كظاهرة مرضيّة تستشري وتهدد العقلانية سريعًا إلى نوع من التدمير الذاتي. وليس هناك غير المعالجة العقلانية وسيلة لتلافي الانزلاق نحو المصير المفجع، ذلك لأنّ التطرّف في جميع الأحوال هو من عمل اللاعقل. وعبارة أخرى، هو دومًا نتيجة لـ"استقالة العقل"، وبالتالي فإذا تمّت مواجهة التطرّف بعقل مستقيل مضاد كان المصير كارثة حقيقية. يذهب الجابري إلى أنّ المعالجة العقلية لظاهرة ما تتطلّب الاعتراف بها كشيء واقع، كظاهرة لها أسبابها، لأنّ معرفة الأسباب الحقيقية يسهّل عملية إيجاد الحلول لمواجهة الظاهرة ومحوها بمحو أسبابها. وهنا يوصي الجابري بضرورة تجنب ردود الفعل اللاعقلانية في معالجة هذه الظاهرة. ذلك لأنّ المعالجة اللاعقلانية لا تنتج سوى مزيد من ردود الفعل اللاعقلانية. وإدّاء،

(4) المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، ص138.

(5) نفسه، ص164.

(6) المسألة الثقافية في الوطن العربي، محمد عابد الجابري، ص166.